مهاتما غاندي – العجل عند الدروز

مهاتما غاندي

عن المجلة العامة الافرنسية « *La Revue Universelle* » ١ ايار ١٩٣٠

« عينان هادئتان قاتمتان . انسان قصير القامة ، ضعيف ، ناحل الطلعة ، حافي الرجلين ، ذو اذنين كبيرتين منتصبتين ، على رأسه قبعة بيضاء ، وثوبه من القماش الابيض ». تلك هي صورة مهاتما غاندي ، كما رسمها رومان رولان

ان غاندي ينتمي بمولده الى الفئة الهندية المتوسطة المتعيشة من المتجر . اما منشأه فهو انكليزي ، او يكاد . وقد يشكر لكونه لا يفهم اللغة السانسكرية الا بالجهد . قضى في لندن اياماً درس فيها الحقوق ، وحرّر باللغة الانكليزية المقالات التي نشرها في جريدة « الهند الفتاة » عارضاً فيها مطالبه.

ان الحركة الهندية غريبة الاجل . وهذه حقيقة اشهر من نار على علم . وقد صدقت في غاندي كما صدقت في سونياتن وفي مصطفى كمال ، فان افكارهم لم تختمر الا بما نالها من افكار الغرب . اما غاندي فقد تعلم على روسو وروسكين وتولستوي . وكان تأثيرهم فيه اشدّ من تأثير كتب الهند المقدسة !

تمخضت آسية ، ردًّا لفعل اوربة فيها ، وولدت فكرة ! واذا بالفكرة . . . اوربية !

ختم غاندي دروس الحقوق وعاد الى الهند وتعاطى مهنة المحاماة . ولم يكشف على ما ايقن به من دعوته الخاصة الا بعد ان طرحته النوى مطارحها سنة ١٨٩٣ في افريقية الجنوبية ، وهي مهجر الهنود المألوف ، يؤمّها الوفهم من ذوي البؤس ويقيمون خاصة في اقليمها المعروف بالناتال.

فلما حلها غاندي ورأى بام العين ١٥٠,٠٠٠ من مواطنيه عمالاً على شواطي البحر واكثرهم في المناجم ، وهم تحت ثقل حكم اشبه بتحكم الاميركان في الجنس الاصفر في كاليفورنية ، تفتحت عيناه ، وتبصر في مشكل الجنسيات ، وعقد العزائم على صرف حياته في تنبيه عاطفة الحزم في الشعب ، وبعث وجدانه القومي الى الحياة . فمثل في افريقية دوراً اهبه للدور الثاني الذي اخذ يمثله اليوم في بلاده امام العالم.

آلى على نفسه الملاينة والحلم في النضال . فلن يخوض معركة ولن يحمل سلاحاً ولكن يتذرع بالوسائل السلبية بلوغاً لمأربه وذلك بالاضراب عن العمل ، وباحثاً على مهاجرة المدن . ودام جهاده السلمي عشرين سنة ، الى ان سلمت انكلترة بطالبه فابدلت سنة ١٩١٤ بعض بنود النظام المجحفة بحقوق المهاجرين الهنود . ورجع غاندي الى بلاده فظهر فيها رشيداً وقائداً تجسمت فيه حقوق الامة ومطالبها .

وفي السنة ١٩١٤ نشبت نيران الحرب المسكونية ، فناصر غاندي انكلترة ودعا مواطنيه الى التجند ولم يشك بامكان التآلف بين استقلال الهند وكيانها ضمن الامبراطورية البريطانية . ولعله علل نفسه بان «تهب انكلترة الهند استقلالها عفواً ووفاء بالمعروف» ولكن الانكليز ضيقوا على الهند في اواخر الحرب فخابت الآمال وهاجت الخواطر ، وساعد على توتر الاحوال استياء المسلمين من ازمة الخلافة فانضموا الى البراهمة وانفسح مجال العمل لغاندي.

واعلم ان الهند هي ارض الاديان منذ القدم . فتذرع غاندي بالعاطفة الدينية ، ودعا الناس الى اقامة يوم يصومون فيه اجمعين (٦ نيسان ١٩١٩) فحدث انفجار واضطراب قبض في اثنائه على غاندي ، واحتج الناس ، فاطلق سراحه .

وعُقد المؤتمر الهندي الاول (٣٠ حزيران ١٩٢٠) في الله اباد وقرر مبدأ «التنحي» (*noncooperation*) وتصدى الشعب الهندي في ناتال لصوت المؤتمر وضخمه . فصودرت البضاعات والمدارس والادارات الانكليزية مصادرة عامة مدهشة .

فاستسنح غاندي الفرصة لزرع التعاليم التي استقل بذورها من مطالعاته روسكين وتولستوي ، وحث على مقاومة « الماشينيسم » (او عادة الافراط بالاستعاضة عن اليد العاملة بالماكنات والمعالاة بتقدير منزلة الاجهزة المادية) وعلى العودة الى الصناعة الهندية ، ولبس النزل الهندي وحذا حذوه الهنود ونبذوا الانسجة الاوربية .

ورفع غاندي علم الاصلاح وشان على الامة انقساماتها طبقات متنائية وظلمها لطبقة « الباريا » السفلى ودعا الهنود والمسلمين والباريا الى السلام والوئام ، وبلغ منه حسن ظنه بالمستقبل ان عرض عليهم اجمعين توفيقهم بالمذهب وتوحيدهم في الدين . واعلن ذاته تلميذاً للمسيح ولبوذا معاً .

وليس نفوذ غاندي في السياسة دونه في الحياة الاجتماعية وهو ثاقب الرأي محنك ، يخاطب الناس طبقاً لاحوالهم ولمقتضيات الظروف . وان يكن يدعو دوماً الى الملاينة والى السعي في خير الانسانية جماء. فلن يحجم عن اهاجة عاطفة التحمس والوطنية الصميمة في من يراهم ميالين الى العنف والقتال من امثال شعب « السيخ » ذلك ما دعا ببعض الناس الى الاعجاب « بنفسية غاندي الخصيبة » اما نحن فلا نرى من ثم داعياً للاطراء. وندعو تاونه «استسناح الفرص في حينها» (*opportunisme*) .

وفي السنة ١٩٢٩ عقد مؤتمر نغبور وايد مبدأ غاندي بعدم استعمال العنف والشدة . فاجابت الحكومة بالقوة والقمع . فدعا غاندي مواطنيه الى الخروج عن الطاعة المدنية . واعلن ان الشرائع الانكليزية لا قوام لها ان لم تلب طلبات الهند. وقرر الاضراب عن دفع الضرائب .

فاكترثت انكلترة للحوادث . وفي تشرين الثاني ١٩٣١ حل الهند البرنس ارفولس . فانهارت الاحتجاجات واضطرمت الفتن ، وقامت الساعة .

ولعل غاندي اراد مراعاة حرمة وليّ العهد البريطاني ، او خاف على ذاته تبعة الحوادث ، فاوقف تيار المقاومة ، وسلك تلك الخطة ايضاً في السنة التالية عند مقتل رجال الدرك الانكليزي في شوري شورا ؛ لكن سياسته الحذرة سوء المنبات لم تحل بينه وبين السجن مرة اخرى . فحبس ومرض واقلق الرأي

العام فافرج عنه وعومل انصاره بالتساهل فتراخى عن التقيد بالاضراب المدني وساهمهم في اشتراكهم باللجن التشريعية .

فنال ما نال من علوّ المكانة ونفوذ الكلمة ، ووقف بوجه الحكومة الانكليزية وقفة الزعيم المطاع الى ان تطوّرت الحركة الوطنية وتفرقت طرائق في مبدأ « الملاينة والحلم » فتنحى غاندي عن السياسة (١٩٢٦—١٩٢٩) ثم عادت الحوادث واخرجته عن عزلته الى ميدان جديد .

في تشرين الثاني ١٩٢٩ تعدى احدهم على نائب الملك . فبادر غاندي وشنع الجريمة وفاز بجذب اصوات المؤتمر الوطني الى رأيه ، ببعض الاكثرية . ثم هاج الشعب وماج وتحدث عن الاستقلال وتحس فاعلن العيد الوطني الرسمي (٢٦ كانون الثاني) رغماً عما كان المؤتمر قد قرره من عدم قطع العلاقات مع الامبراطورية البريطانية .

وفي ٢ اذار الماضي ارسل غاندي الى الحكومة اخطاراً بشقّ عصا الطاعة المدنية ان هي لم تلبِّ طلب الهند وتخولها حق حكم ذاتها بذاتها (*Home Rule*) وفي ١٢ آذار مشى غاندي واتباعه على بومباي ولم يلاقِ مانعاً يوجهه . فاضطربت البلاد وذكرت الصحافيين بايام الثورة الافرنسية اذ اتخذ الشعب من الملح على الملح داعياً للفتنة .

مشى غاندي واينما مشى اقدم متطوعوه على تهيئة الملح وبيعه . اما الحكومة فغضّت النظر وصبرت .

سارت حملة غاندي ولواء السلام معقود على رأسها ، لان زعيمها يأبى الا تحقيق الاماني بالملاينة والحلم والتأني . ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

انفجرت قنابل في مصافّ الناس ولم تحدث ضرراً يذكر لانها كانت غير محكمة الصنع . ولكن لرماها معاني ؛ لقد دخلت المقاومة السلبية في طور جديد . قد يسود مبدأ الملاينة بلاد بومباي ، اما في كالكوتا فهو في تلاش ، والمعارك اسفرت عن قتلى وجرحى واحراق البيوت . وان للشيوعية الدولية الثالثة يداً خفية في الامر ، وهي التي تضع الخمير في العجين اذا ما عجنته الفتن الاسيوية .

واستاء غاندي من تلك الفظائع وقبحها . وبلغ منه الاستياء الى تهدد انصاره بمقاومتهم ، اذا هم اصروا على التذرع بالعنف توسلًا الى غايتهم . وان اضطرار غاندي الى ذلك الاعلان لامر خطير ودليل منذر بان الفتن لن تكذب اصلها !

عبثًا يضع لها منشؤوها سدودًا ، لانها اذا طفت جرفت كل مانع في وجهها . واذا انهدّ السدّ وطغى السيل ودخلت الحركة الهندية الوطنية طورها الدموي ، فلا سبيل الى معرفة ما تجرّه من الاهوال.

العجل عند الدروز

ذكر « المشرق » (السنة الحادية ، ص ٤٧٦) كتاب الدكتور حتي في « اصول الشعب الدرزي وديانته » ، فقال بن عبادة العجل ان امرها غير محقق عند الدروز .

وتناول سليمان بك ابو عز الدين الكلام في الكتاب المذكور ، فقال عن «خرافة العجل» (في النكلية ، ص ٢٠١) :

« الصقت بالدروز خرافة تنسب اليهم عبادة العجل او الاحتفاظ بتمثاله في صندوق من فضة او ذهب او ما شاكل ذلك . ونظرًا لتكتم الدروز في معتقداتهم وتضارب اقوال الرواة في هذا الموضوع خامرت الشكوك بعض الباحثين في معتقدات الدروز . على اننا كنا نظن ان الدكتور حتي الذي عاشر الدروز طويلًا يزيل هذا الشك ويصحح الخطأ الذي وقع فيه الذين تقدموه لان الدروز شديدو النفور من التماثيل ونسبة عبادة العجل اليهم او احتفاظهم بتمثاله باي شكل من الاشكال ولاي غرض من الاغراض مما لا صحة له على الاطلاق . وتعزيزًا لذلك نقول :

١ ان العجل لقب اطلقه الدروز على نشتكين الذي يزدرونه وهو عندهم ابليس الرجيم فهل يعقل انهم يعبدونه وهم يحتقرونه.

٢ ان النصوص الدينية في كتبهم تشير الى عبدة العجل بالهزء والازدراء. فلو كان الدروز من تلك الطائفة لما اشير اليهم بالتحقير في كتبهم.

٣ ان الدروز موحدون « وموحدون » هو اسمهم الاصلي وعبادة الصنم نوع من الشرك المخالف للتوحيد.

٤ لو كان الدروز يقدسون هذا الحيوان النافع ويعبدونه لحذوا حذو الهنود فاحجموا عن استخدام البقر وامتنعوا عن اكل لحومها.

٥ لو كان الدروز يحتفظون بتمثال العجل في خلواتهم او منازلهم لوقع في ايدي سواهم[1] . فان عدداً كبيراً من كتب الدروز تسرب الى ايدي غيرهم في اوقات مختلفة . وفي اثناء ثوراتهم على ابراهيم باشا المصري وحكومة الانتداب الافرنسي وقع بعضها في ايدي محاربيهم الذين دخلوا خلواتهم ومنازلهم بغتة ولم نسمع انهم عثروا في تلك الخلوات والمنازل على اي تمثال من اي نوع كان . واذا قيل انهم لم يحتفظوا الا بتمثال واحد وفرض انهم توفقوا منذ اكثر من تسعمائة سنة الى حفظه حيث لا تصل اليه ايدي الغير لكان ذلك التمثال الفرد محجاً يؤمه الدروز باكتم . اما رواية المستر سيبروك التي اشار اليها الدكتور حتي وهي ان المستر سيبروك استنتج من حديث مع احد مشايخ جبل الدروز وجود تمثال للعجل فهي اما خيالية او استنتاج غير صحيح من حديث مبهم . فقد اجتمع كاتب هذه السطور بالمستر سيبروك في بيروت قبل سفره الى جبل الدروز وبعده واوضح له سخافة نسبة عبادة العجل الى الدروز ولم يذكر المستر سيبروك حينئذٍ شيئاً عن حديث مع احد مشايخ جبل الدروز في هذا الموضوع.»

هذا وقد اخذنا عن دي ساسي اسطراً بثّ منها نور على هذه القضية المبهمة. قال في كتابه «ديانة الدروز» (١ : ٢٢)

«تقول العامة ان الدروز في مجتمعاتهم يعبدون الحاكم بصورة العجل ، وعرّف العلامة اولير الناس باثر من امثال ذلك مأخوذ عن متحف الكردينال بورجيا . ولكن السيد فانتور نشر في لندن سنة ١٧٨٦ كتاباً شكّ فيه بكون الدروز ينظرون الى العجل نظرهم الى رمز من رموز ديانتهم ويضعونه موضع العبادة فقال : «لا يمكننا ان نقتبس الّا بصيصاً عن اجتماعات الدروز

---

١) اكد لنا كاهن قرية من القرى اللبنانية المسيحية الدرزية انه رأى يوماً بين يدي ولد درزي عجلاً صغيراً مصوغاً من المعدن ، فتوصل الى الحصول عليه ، وما مضت ايام الا فقد العجل ولم يدر كيف فقد.

السرية. وكل ما نعرفه عنها هو انهم يُظهرون فيها عجلًا ويقرأون فيها كتبهم المقدسة ويؤولونها تأويلًا رمزياً تقليدياً ابًا عن جد . يزعم العوام ان العجل الذهبي هو موضوع عبادتهم ، اما انا فلديّ من الشواهد ما يمكنني من القول انهم يعرضون العجل رمزًا لسائر الاديان الشائعة التي اوشك مشترعهم ان يبيدها ، فليس هو موضوعاً لعبادتهم وكتبهم الدينية تؤيد زعمي هذا ، لانها تارةً تستهجن عبادة الاوثان وطورًا تشبّه دين اليهود والمسيحيين والاسلام بالعجل او بالثور.»

وهذا الكلام هو مصداق الى ما كنت اشتبهه في امر عبادتهم وهو ان العجل الموهوم مؤلهاً ، انما هو رمز ابليس عدوّ الحاكم وخصمه. واني اليوم على اليقين ان عبادة العجل ليست مفروضةً او مباحة طبقاً للتعليم الدرزي الاصلي والتعليم الحاكمي ، بل هي امر مستحدث قد ادخله على دين الموحدين احد زعماء البدع المشتقة من الدروز.

ف.ت.

شذرات

ما نقرأه في كتاب صغير

هو كتاب تاريخ الشام من السنة ١٧٢٠ الى السنة ١٧٨٢ للخوري مخائيل بريك الدمشقي الذي نشره مؤخرًا الخوري قسطنطين الباشا المخلصي [1] . فما نقرأ فيه مدحاً لاحد حكام دمشق من آل العظم ، سنة ١٧٥٩ ، وذكر حالة النصارى في ايامه . قال الكاتب (ص ٦٢—٦٣) :

« الفقير قرات في تواريخ دمشق منذ حين تسلمتها الاسلام الى هذا الزمان فما رأيت تاريخ يخبر بانه صار لهم عز وجاه وسيط وسطوة وذكر مثل مدة العشر السنين الماضية في حكم اسعد باشا ابن العظم فكان اسمه اسعد والسعد يوجهه

١) مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ١٩٣٠ ، في ١٦٠ صفحة متوسطة